

تفسير البحر المحيط

@ 144 @ آدم وبنوه كانوا على دين حق فاختلفوا من حين قتل قابيل هابيل ، أو : بنو آدم من وقت موته إلى مبعث نوح كانوا كفاراً أمثال البهائم ، قاله عكرمة ، وقتادة . أو : قوم إبراهيم كانوا على دينه إلى أن غيره عمرو بن يحيى ؛ أو : أهل الكتاب ممن آمن بموسى على نبينا وعليه السلام ، أو : قوم نوح حين بعث إليهم كانوا كفاراً قاله ابن عباس ، أو : الجنس كانوا أمة واحدة في خلوصهم عن الشرائع لا أمر عليهم ولا نهى . أو : صنفاً واحداً ، فكان المراد : أن الكل من جوهر واحد ، وأب واحد ، ثم خصّ صنفاً من الناس ببعث الرسل إليهم ، وإنزال الكتب عليهم تكريماً لهم ، قاله الماتريدي فهذه إثنا عشر قولاً في الناس . . .

وأما في التوحيد فخمسة أقوال : أما في الإيمان ، وأما في الكفر ، وأما في الخلقة على الفطرة ، وأما في الخلو عن الشرائع ، وأما في كونهم من جوهر واحد . وهو الأب . . . وقد رجح كونهم أمة واحدة في الإيمان بقوله : { فَدَبَعْتَهُ الْوَحْشُ } وإنما بعثوا حين الاختلاف ، ويؤكداه قراءة عبد الله { أُمَّةً وَاحِدَةً } فاختلفوا ، وبقوله : { لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ } فهذا يدل على أن الاتفاق كان حصل قبل البعث والإنزال ، وبدلالة العقول ، إذ النظر المستقيم يؤدي إلى الحق ، ويكون آدم بعث إلى أولاده ، وكانوا مسلمين ، وبالولادة على الفطرة ، وبأن أهل السفينة كانوا على الحق ، وبإقرارهم في يوم الذر . . .

ويظهر أن هذا القول هو الأرجح لقراءة عبد الله وللتصريح بهذا المحذوف في آية أخرى ، وهو قوله تعالى : { وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا } والقرآن يفسر بعضه بعضاً ، وتقدم شرح : أمة في قوله : { وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةٌ مُّسْلِمَةٌ لِّلَّهِ } . . .

وفي قراءة أبي : كان البشر ، إشارة إلى أنه لا يراد بالناس معهودون ، ومن جعل الإتحاد في الإيمان قدر ، فاختلفوا فبعث الله ، ومن جعل ذلك في الكفر لا يحتاج إلى هذا التقدير ، إذ كانت بعثة النبيين إليهم ، وأول الرسل على ما ورد في الصحيح في حديث الشفاعة : نوح على نبينا وعليه السلام ، يقول الناس له : أنت أول الرسل ، المعني : إلى قوم كفار ، لأن آدم قبله ، وهو مرسل إلى بنيهِ يعلمهم الدين والإيمان . { فَدَبَعْتَهُ الْوَحْشُ } النبيين مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ { أي : أرسل النبيين مبشرين بثواب من أطاع ، ومنذرين بعقاب من عصى ، وقدّم البشارة لأنها أبهج للنفس ، وأقبل لما يلقي النبي ، وفيها اطمئنان

المكلف ، والوعد بثواب ما يفعله من الطاعة ، ومنه . { فَإِذَا زَمَّ مَتَا يَسَّرَ نَزَاهُ }
بِلَسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا { وانتصاب
: مبشرين ومنذرين ، على الحال المقارنة . .

{ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ } معهم حال من الكتاب : وليس تعمل فيه
أنزل ، إذ كان يلزم مشاركتهم له في الإنزال ، وليسوا متصفين ، وهي حال مقدرة أي : وأنزل
الكتاب مصاحباً لهم وقت الإنزال لم يكن مصاحباً لهم ، لكنه انتهى إليهم . .
والكتاب : إما أن تكون أل فيه للجنس ، وإما أن تكون للعهد على تأويل : معهم ، بمعنى
مع كل واحد منهم ، أو على تأويل أن يراد به واحد معين من الكتب ، وهو التوراة . قاله
الطبري ، أنزلت على موسى وحكم بها النبيون بعده ، واعتمدوا عليها كالأسباط وغيرهم ،
ويضعف أن يكون مفرداً وضع موضع الجمع ، وقد قيل به . .

ويحتمل : بالحق ، أن يكون متعلقاً : بأنزل ، أو بمعنى ما في الكتاب من معنى الفعل ،
لأنه يراد به المكتوب ، أو بمحذوف ، فيكون في موضع الحال من الكتاب ، أي مصحوباً بالحق
، وتكون حالاً مؤكدة لأن كتب القرآن المنزلة يصحبها الحق ولا يفارقها ، وهذه الجملة معطوفة
على قوله : { فَدَبَّرْهُ } . .

ولا يقال : إن البشارة والندارة إنما يكونان بالأمر والنهي ، وهما إنما يستفادان من
إنزال الكتب فلم قدما على الإنزال مع أنهما ناشئان عنه ؟ لأنه ذلك لا يلزم ، لأن البشارة
والندارة قد يكونان ناشئين عن غير الكتب من وحي القرآن لنبيه دون أن يكون ذلك كتاباً يتلى
ويكتب ، ولو سلم ذلك لكان تقديمهما هو الأولى لأنهما حالان من النبيين . فناسب اتصالهما
بهم ، وإن كانا ناشئين عن إنزال الكتب . .

وقال القاضي : الوعد والوعيد من الأنبياء عليهم السلام قبل بيان الشرع ممكن فيما يتصل
بالعقليات من معرفة القرآن تعالى ، وترك الظلم وغيرهما ، انتهى كلامه . .

وما ذكر لا يظهر ، لأن الوعد بالثواب والوعيد بالعقاب ليسا مما يقضي بهما العقل وحده
على جهة الوجوب ، وإنما ذلك على سبيل الجواز ، ثم أتى الشرع بهما ، فصار ذلك الجائز في
العقل واجباً بالشرع ، وما كان بجهة الإمكان العقلي لا يتصف به النبي على سبيل الوجوب
إلا بعد الوحي قطعاً ، فإذا ينقدّم الوحي بالوعد والوعيد على ظهور البشارة والندارة
ممن أوحى إليه قطعاً . .

قال القاضي : وظاهر